إضاءة

يضيء المؤلّفان رسول رجبي وصادق محمدي في كتابهما شخصية مركزية مثّلت الثقافة الشرقية المتراكمة في بريزرن، ويتناولاها ضمن السياق التاريخي للمدينة الكوسوفية خلال فترات الانتقال السياسي لما بعد مرحلة الحُكم العثماني في العقد الثاني القرن العشرين

حياة مفتي بريزرن وسجنه ومخطوطاته العربية

رستم شبورتا حكاية هروب إلى الحرّية

محمد. م الأناؤوط

قبل مئة سنة بالتمام، اعتقل مفتي مدينة بريزرن Prizren، التي أصبحت في 1869 مركزاً لولاية عثمانية جديدة حملت اسم قوصوه (كوسوفو) لاحقاً، الشيخ رستم شبورتا Rr. Shporta الذي كان من الجيل المخضرم الذي عايش حروب المنطقة وانتقال الحكم من دولة إلى أخرى، والذي مثّل الثقافة الشرقية السائدة في زمنه لكي يتسلّمها بعد وفاته في 1937 الجيل الجديد (جيل حسن كلشي) الذي انتقلت معه هذه الثقافة من المدرسة التقليدية إلى الجامعة مع تأسيس قسم الدراسات الشرقية في 1973.

كانت بريزرن مدينة عريقة من القرون الوسطى دخلت ضمن توسّع وتقلّص الإمبراطوريات (بلغارية وصربية وعثمانية) عدة مرات حتى استقرت حوالي 500 سنة تحت الحكم العثماني لتتحوّل إلى «مركز الثقافة الشرقية» كما سمّاها د. كلشي في دراسة له، وهي لا تزال حتى الآن أكثر مدينة محافظة على بنيتها العثمانية. ولكن بريزرن عانت كثيراً من الحروب وتعاقُب أنظمة الحكم المختلفة بعد نهاية الحكم العثماني، وبالتحديد خلال الحروب البلقانية 1912 - 1913 والحرب العالمية الأولى 1914-1918. فقد احتلتها بلغاريا باعتبارها جزءاً من إمبراطوريتها القروسطية وكذلك فعلت صربيا باعتبارها العاصمة الصيفية للإمبراطور دوشان 1348-1355 وتصرّفت كلتاهما لاستعادة الماضي دون أي اعتبار لما تغيّر على مدى 500 سنة من الحكم العثماني.

ومن هنا فقد كان الكتاب الذي أصدره الزميلان المعنيان بالثقافة الشرقية رسول رجبي وصادق محمدي بعنوان «الحاج رستم شبورتا: حياته وآثاره (1864-1937) لا يضيء فقط لأول مرة على هذه الشخصية المركزية التي تمثل الثقافة الشرقية المتراكمة في المدينة/ الولاية على مدى عدة عقود، بل يتناول هذه الشخصية ضمن السياق التاريخي للمدينة خلال فترات الانتقال ما بعد العثماني، فعلى نمط ما ارتكبته إسبانيا في الأندلس بعد 492 كانت روح «الاستعادة» تحرّك السلطات الصربية والبلغارية خلال حكمها للمدينة خلال 1912-1918. وبالاستناد إلى تقرير للقنصل النمساوي في المدينة خلال الحكم الصربي في 1914، يورد المؤرخ البريطاني نويل مالكوم في كتابه «كوسوفو تاريخ مختصر» أنه «من أصل 32 جامعاً في المدينة تم تحويل 30 منها إلى ثكنات عسكرية وإصطبلات ومخازن للذخيرة»، بينما ساء الوضع أكثر خلال الحكم البلغاري للمدينة (1916-1918)، وهي الفترة التي غُيّب فيها رستم شبورتا مفتياً على المدينة.

مدخل جامع سنان باشا في مدينة بريزرن بعد ترميمه الأخير (Getty)

الحج كوسيلة للتزوّد بالمؤلفات الشرقية

وُلد رستم شبورتا في شارع كان يسمّى باسم العائلة «شارع آل شبورتا» بسبب خان أو فندق بناه جده، وهو ما سمح للعائلة بأن تعتني به. فبعد أن التحق بالكتّاب وتعلم أساسيات العلوم الدينية تابع دراسته في إحدى أشهر المدارس في بريزرن (مدرسة محمد باشا) التي تعلّم فيها علوم الدين واللغة العربية التي أجادها. وفي السنة التي تخرج بها من هذه المدرسة (1896) ذهب إلى الحج، وهي الرحلة التي كانت تستغرق حوالي سنة في الذهاب والإياب، ولكنه استفاد منها للتزوّد بأمهات الكتب في الفقه واللغة العربية، التي لا تزال محفوظة وتبيّن مصادر ثقافته الفقهية وإجادته للغة العربية. وقد عُيّن بعد عودته مدرساً للغة العربية في المدرسة التي تخرّج منها، وهو الذي جعله يتمكّن من التأليف في اللغة العربية كأحد الناطقين بها، إلى أن عيّن مفتياً للمدينة في 1917.

كانت فترة الحكم البلغاري (1916-1918) من أصعب الفترات التي بقيت في الذاكرة الجمعية باعتبارها ارتبطت بالمجاعة

تجربتان في السجن

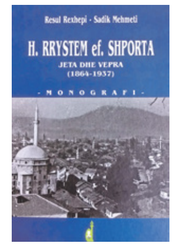

يُذكّر كتاب الباحثين رسول رجبي وصادق محمدي حول مفتي مدينة بريزرن الكوسوفية «الحاج رستم شبورتا: حياته وآثاره 1864 - 1937» (الغلاف) بتجربة أول رئيس لجمهورية اليوسنة والهرسك، المفكّر علي عزت بيغوفيتش (1925 - 2003)، الذي عرف هو الآخر كيف ينجو بنفسه من سنوات السجن (1983 - 1988) في فوتشا Foča بالبوسنة منشغلاً بالقراءة والكتابة التي توّجها بكتابه «الهروب الى الحرّية» الذي شهره في العالم.

من المخطوطات التي ألفها بالعربية في السجن رسالتان عن الصبر

حرّكت روح «الاستعادة» صربيا وبلغاريا في حكمهما للمدينة

وإساءة استخدام المنشآت الدينية للمسلمين (الجوامع وغيرها).

وفي نهاية 1918، دخلت القوات الفرنسية الصربية بريزرن لتصبح كوسوفو جزءاً من الدولة الجديدة (مملكة يوغسلافيا) التي أعلنت في 1 كانون الأول/ديسمبر 1918. ومع أن الدولة الجديدة أجبرت في معاهدة سان جرمان 1919 على احترام حقوق الأقليات القومية والدينية، إلا أن الوضع على الأرض كان مختلفاً خاصة للمسلمين.

فمع روح «استعادة الماضي» التي ميّزت الحكم الجديد قامت السلطة الجديدة بحجّة «التطوير العمراني» بهدم بعض المنشآت التاريخية التي بنيت خلال الحكم العثماني، ولكنها مسّت مشاعر الأغلبية المسلمة حين بدأت في 1922 بهدم جامع سنان باشا (بُني في عام 1615) الذي كان يُعتبر «جوهرة المدينة» بحجة أنه بُني من أحجار دير صربي في ضواحي المدينة، وهو الأمر الذي أثبت عدم صحته علمياً د. حسن كلشي في دراسة له باللغة الصربية. ولكن احتجاج السكّان الذي وصل إلى ذروته في 1924 بعد هدم القسم الخارجي وادي إلى وقف المهندس الصربي الذي كان يشرف على هدم الجامع، دفع السلطات إلى اعتقال المفتي رستم شبورتا والحكم عليه في 25 تموز/يوليو 1924 بالسجن لمدة عشرين سنة بتهمة التحريض على قتل المهندس المذكور، وهو ما نفاه المفتي رستم باعتباره «فرية» عليه.

الصبر والتأليف في العربية كوسيلة للنجاة

في هذا الكتاب القيّم عن المفتي رستم شبورتا استعرض المؤلفان المخطوطات التي وجداها بخط المؤلف، بالإضافة إلى المخطوطات العربية والعثمانية والفارسية التي كانت ضمن مكتبته الشخصية التي تعكس ثقافته الواسعة.

وما يهمنا هنا مخطوطاته في اللغة العربية التي ألفها خلال سجنه، التي قضاها في أربعة سجون (سجن بريزرن في كوسوفو وسجن سكوبيه في مقدونيا وسجن نيش في صربيا وسجن زنيتسا في البوسنة) إلى أن أطلق سراحه في منتصف آذار/ مارس 1935 ليعود مرهقاً إلى مدينته ليتوفى فيها في 5 تشرين الأول/ أكتوبر 1937 وسط التقدير الذي حظي به من تلاميذه ومحبّيه.

من هذه المخطوطات التي ألّفها بالعربية خلال سجنه لدينا مخطوطتان اختار لهما موضوعاً مناسباً: الصبر. أما المخطوطة الأولى فكانت بعنوان «رسالة في الصبر» كتبها في سجن بريزرن الذي قضى فيه 1368 يوماً وأكملها في 17 شعبان 1343هـ/ آذار/مارس 1925، في حين أن المخطوطة الثانية «شرح موجز للرسالة في الصبر» ألّفها في سجن زنيتسا Zenica بالبوسنة الذي قضى فيه معظم سنوات سجنه وأكملها في 25 شوال 1315 هـ/ 3 شباط/فبراير 1933.

وفي مقدمة هذه الرسالة ينطلق المؤلف من التسليم بمشيئة الله باعتباره «مالك الملك يتصرف في ملكه وفي خلقه كما يشاء ولكنه بجميع شؤناته (كذا) منعمٌ لهم بتقرّبهم إليه بالشكر والصبر والرضا... تارة بالسرّاء أي بإلقاء السرور لهم في دينهم ودنياهم، وتارة بالضرّاء أي بإصابة الضرر والبلاء في أنفسهم وأولادهم وأبويهم وإخوانهم وأقربائهم وأصدقائهم المؤمنين وأحوالهم ليكونوا شاكرين في السرّاء وصابرين عند البلاء فيفوزوا بهذين الوصفين المشمولين عند الله فوزاً عظيماً». ويستذكر المؤلف هنا الصبر الذي أبداه الرسول محمد «الذي ما أوذي نبيٌ مثله ... حتى الجأوه إلى الهجرة فصبر وشكر على الضرّاء والسرّاء إذ قال تعالى قولاً له: فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل».

ومع هذا الابتلاء يعظّم المؤلف قيمة الصبر الذي خصّص له رسالته الموجزة الأولى في سجن بريزرن، ثم شرح رسالته هذه في سجن زنيتسا بالبوسنة حتى تمكّن من الحفاظ على نفسه والخروج من السجن والوصول إلى بيته سالماً في بريزرن في 1935. وتجدر الإشارة إلى أن المفتي رستم شبورتا كان قد اتخذ لنفسه محبساً شعرياً (ذهني)، ولذلك كان يذكر في نهاية مؤلفاته اسمه بالصيغة العربية: عبده الضعيف المعترف بالتقصير رستم ذهني برزيني.

(كاتب وأكاديمي كوسوفي سوري)

كاتب من العالم

تقف هذه الزاوية، مع كاتب من العالم في أسئلة سريعة حول انشغالاته الإبداعية وجديد إنتاجه وبعض ما يودّ مشاطرته مع القارئ العربي

شِعري هو صلاتي وصلاتي هي شِعري

سيد علي صالحي

طهران ـ العربي الجديد

■ كيف تُقدّم عملك لقارئ جديد، وبأيّ كتاب لك تنصحه أن يبدأ؟

تم تسجيل مجموعة من قصائدي بعنوان «الرسائل» كتابا صوتيا بصوت الممثل الإيراني الشهير الراحل خسرو شكيبائي، وسمعه الملايين من الإيرانيين على مدى خمسة وثلاثين عاماً في جميع أنحاء العالم، وأينما كان هناك إيراني كان شعري ضيفاً عليه. هذه هي أفضل طريقة لتقديم الشعر الفارسي الجديد.

■ ما السؤال الذي يشغلك هذه الأيام؟

الحرب. اللعنة للحرب. أبكي من أجل الأطفال الأبرياء سواء في أوروبا الشرقية أو في الشرق الأوسط أو في أفريقيا أو في أميركا اللاتينية أو في غزّة. وُلد العالم من العدالة، في الديانات الأسيوية يحذرون الإنسان من الجحيم ويجهلون أنه يعيش فيها. الإنسانية محكوم عليها بدفع الثمن ولا تعرف لماذا؟ أصلي كلّ ليلة من أجل الأطفال ومن أجل السلام ومن أجل الحمام ومن أجل الحرية. شعري هو صلاتي وصلاتي هي شِعري.

■ ما هو أكثر ما تُحبّه في الثقافة التي تنتمي إليها، وما هو أكثر ما تتمنّى تغييره فيها؟

لا أعرف ماذا أقول؟ الشعب الإيراني طيّب. أُحبّ هؤلاء الناس وهذا الطيب. أحب شعر هؤلاء الناس وعيون هؤلاء الناس. أتمنى أن تتغيّر ظروف الفقر وتتمكّن من التنفّس وكتابة الشعر دون خوف وأن تُصبح جميع الأمم قبلةَ سلامٍ وتذهب جميع الحكومات إلى الجحيم. فالجنّة هي عصور انعدام الحكومات والحكمة ضدّ الحزن.

■ لو قيض لك البدء من جديد، أي مسار كنت ستختار؟

أحاول ألّا أولد.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

لا ينبغي للفلاسفة أن يخدعوا الناس. يجب أن تُنسى الوعود الوهميّة. يجب أن يتفوّق الإنسان على العُقد. فالنظام العامّ والحالي للعالم (كوكبنا) غبيّ جدّاً. «الحكومة» في تعريفها التاريخي تعني حكم القلّة على الأغلبية وهذا أمر مُضحك. يحذّرون الإنسان من الفوضى ويكذبون عليه. لقد أصبح موضوع «السيّد/ العبد» أقوى من أي وقت. نحن في حالة حرب لدرجة أنّنا نسمي «إيقاف الحرب مؤقتاً» السلام.

■ شخصية من الماضي تود لقاءها، ولماذا هي بالذات؟

غابرييل غارسيا ماركيز. لأنه بمثابة الأخ بالنسبة لي.

■ ما هو، في اعتقادك، أكبر خطر على حرّية الكاتب والكتابة في العالم اليوم؟

أولاً: الرقابة، وثانياً: الرقابة، وثالثاً: الرقابة بكافة أشكالها.

■ ما هي قضيّتك، وهل يمكن أن تكون الكتابة قضية بذاتها؟

الكتابة ليست قضيّتي. قضيّتي هي سرّ المجرّات وتكوين العالَم.

■ الأدب العالمي يكتبه المترجمون. إلى أي درجة توافق على هذه المقولة، وإلى أي درجة كتبك المترجمون؟

المُترجم الجيّد والمحترف هو مؤلّف آخر. نزور المؤلّف في البيت والمترجم في الشارع. أحياناً يكون المترجم أكثر إبداعاً من المؤلّف.

الكتابة ليست قضيّتي بل سرّ المجرّات وتكوين العالم

■ كيف تصف علاقتك مع اللغة التي تكتب بها؟

لا أستطيع وصف لُغتي الأمّ. لا يُمكن وصف الاستعارة الطافية. اللغة هي روح الوصف وبالكتابة نسجن روح اللغة. للأسف نحن سجّانو اللغة. قد يكون هذا التعبير قاسياً ولكنه الحقيقة.

■ كاتب منسيّ من لغتك تودّ أن يقرأه العالم؟

لا أعرف أحداً. لأنني أريد أن يقرأ العالم لغتنا. ضالّتي الكونية هي لُغتي الأمّ وبدون هذه «الأمّ» يصبح الجميع أطفالاً. «الكاتبة المنسيّة» هي لُغتنا المقدّسة.

■ لو بقي إنتاجك بعد ألف سنة، كيف تحبّ أن تكون صورتك عند قرّائك؟

طيّب وواثق وشاعر عظيم.

■ كلمة صغيرة شخصية لقارئ عربي يقرأ أعمالك اليوم؟

اللغة العربية جاءت من السماء. أنا لا أتقن اللغة العربية، لكن سيمفونية الكلمات العربية معجزة. أحبيتُ أمّ كلثوم وعبد الحليم حافظ منذ المراهقة وحتى اليوم لا يزال صوت فيروز يُسكرني.

سيد علي صالحي

بطاقة

شاعرٌ وكاتب وناقد إيراني من مواليد عام 1956. من مؤسّسي «حركة الشعر النقيّ» و«شعر الخطاب» و«شعر الحكمة». وأحد الأصوات الشعرية البارزة في الشعر الفارسي المعاصر. من أعماله الشعرية: «ريترا»، و«العرّاف وبيدق الشطرنج»، و«المُلثّثات والإضاءات»، و«الرسائل»، و«الحبّ في يناير، والموت في سبتمبر»، و«وداعاً أيّها المُسافر الحزين» و«عُجري الكلمات»، كما حصل على عدّة جوائز، منها: «فروغ فرخزاد للشعر».

يوميّات

عن أمل يعود بالفوائد في أحلك الأوقات

اقتلاع

تعصرني ليال من الغضب الذي اراه أحياناً لا معنى له، مع انّ له كلّ المعنى، وطفولة بلا شبع، وشخصيات تعبر الريح، فتمسح ملامحَها الريح

باسم النبريص

يعصرني أن أذبل كلّ يوم. يعصرني ابتعادٌ مُوغل عن الجذور: غياب رجل يقشر البصل في سوق شعبي. تعصرني الحقيقة المُخفيّة وراء اقتصاد اللجوء. أن أراقب من لا يرون الحقائق حتى بـ«التلسكوب». المأساة بدون قناع. ألّا تعترف سيرة الكاتب بسُبل متعدّدة للدخول والخروج. عدم الكشف عن الصورة الذاتية وإنكارها، ولكن أيضاً الحميمية الغائبة في العمل. الباكيات بمعدة فارغة، والمرحات بمعدة مُمتلئة. مَن لا يبكي لأنه فلسطيني وتنتظره الأهوال. المثقّفون الذين يرُدّدون الإجماع الوطني باكسجين الرواتب.

يعصرني ألّا ابتسم للحياة ولو مرّة كلّ يومين. يعصرني أحاد من نسوة اللجوء، يتناولن حبوب منع الحمل، لأن الحكاية أكبر من: «مجرّد جنس فموي». قلبي عليهنّ وعلى ضحايا كَيّ الوعي وكيّ الشرف. ذلك المهرّج وهو لا يعاني.

من يشرف على ثغرة في جدار، ولا يحنُّ إلى جدران قديمة.

تعصرني ليال من الغضب الذي أراه أحياناً لا معنى له، مع أنّ له كلّ المعنى الوخيم. الماضي الاستعماري غير المريح، وطفولة بلا شبع، وشخصيات تعبر الريح، فتمسح ملامحَها الريح.

من لا يحقّق الفوز بعد مباراة شاقّة وقد ظنّ نفسه قادراً. ملحمة القشري والقصائد الغنائية لجهود سباقٍ بلا نهايات. تلك الطُرق بين كروم العنب في غير مكانٍ شامي. عدم ركوب الدراجات من زمن آخر. عدم إنقاذ أية قضية فاشلة من بين براثن الإمبرياليّين. من السيئ أن تعاني أيها البشري، لكن المعاناة تصنع الرجال. لهذا من الجيّد جداً أن تُعاني على أمل، مع القليل من الحظ، بالفوائد التي تأتي غبّ أحلك الأوقات.

قد لا ترغب في سلطة البطاطس والخيار ويلبح البحر مع عصير التفّاح والكَرَز أو الباذنجان المحشوّ، إلّا إن جُعتَ، وشممتَ روائح طعام بعيد يُبكيك. يعصرني ذلك الندم الذي تم افتتاحه للتوّ في غرفة ما من غرف مخيّم «بروخم». تعصرني حتى حماقة حلم بعضنا بالانتقال من التشرّد إلى جَنيٍ الملايين، من لمّ الأثاث في الشوارع وبيعه للفقراء وحتى للأغنياء. كلّ من كان لديه طفولة صعبة من دون امتيازات، يعرف أنّ هذا أضغاث أحلام وإبر «فالصو».

تعصرني حياةٌ مضت، بطيبتها، وغدٌ مُعلّق بين النشوة المُفرطة في الحصول على ورق، وشبح الحصول على قُفاعة ورق التواليت! لقد تركت تدابير التحوّط، مثل تلك التي بحوزها الأقوى منّي، مفلسةً تراهن على الانهيار. يعصرني أن أتابع الانخفاضات التي يسجّلها المؤشّر كلّ يوم، حول المتشائمين في العالم وما يُفرض عليهم من خسائر فادحة. إن عدم وجود الحوافز لبعيق تطوير الأمل في الروح.

ولقد تكون المعيشة هنا غير قابلة للتحكّم، لكن هذا أفضل من البقاء سنوات طويلة، في انتظار فرج لا يأتي.

ما لها العودة إلى برشلونة؟ ستكون أفضل استثمار على مدى السنوات العشر المقبلة، إن كتب الله لنا الحياة.

هناك سنبدأ مساراً جديداً بدفن خطّة العبور غير الرصين إلى بلجيكا. لا بدّ من قرارات صعبة للمرّة الأولى يجب اعتمادها قريباً.

يَسّر وأعنْ يا ربّ.

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

تعصرني متابعة المتشائمين وما يُفرض عليهم من خسائر فادحة

فتىً فلسطيني يعبر بدرّاجته من بين الأنقاض في حيّ الشجاعية بمدينة غزّة، 21 تموز/ يوليو 2024 (Getty)

فعاليات

ينطلق عند العاشرة من صباح الاحد المقبل، في كلية الآداب بـ«الجامعة الاردنية» بعمّان، **ملتقى تحوّلات القصة القصيرة** الذي يتضمّن ثلاث جلسات نقدية، كما سيتم توزيع «جائزة **خليل قنديل** (الصورة) للقصة». من بين المشاركين: **سمير الفيل** من مصر، و**طالب الرفاعي** من الكويت، و**محمد عبيد الله** و**امتنان الصمادي** من الاردن.

حتى الثالث والعشرين من الشهر المقبل، يتواصل في فضاء «لو رويال مونسو - رافلز» بباريس معرض **الفكر الاولمبي: قيمٌ وقممٌ** الذي افتتح الاحد الماضي، بتنظيم من «3-2-1 متحف قطر الاولمبي والرياضي». يضيء المعرض سيرة **بيير دي كوبرتان**، مؤسس الالعاب الاولمبية الحديثة، الى جانب محطات من مشاركة قطر في الاولمبياد، و تطلعاتها لاستضافة دورة اولمبية مستقبلاً.

الصوفية والحداثة عنوان الحفل الذي يقام عند الثامنة والنصف من مساء الاربعاء المقبل على خشبة المسرح المكشوف في «دار الاوبرا المصرية» بالقاهرة، ضمن فعاليات «المهرجان الصيفي». يجمع الحفل بين الموسيقي وعازف البيانو **فتحي سلامة** الذي يمزج الجاز بالموسيقى الشرقية، والمُنشد **محمود التهامي** (الصورة).

تنطلق عند الثالثة والنصف من عصر الاحد المقبل، في «مطافئ: مقرّ الفنانين» بالدوحة، ورشة **مقدّمة في تقنيات التصنيع الرقمي**، والتي تتواصل لخمسة أيام. تُضيء الورشة، التي يقدّمها المهندس **علي الصغيري**، المفاهيم الاساسية لقطع الليزر، والتحكّم الرقمي بالحاسوب، والطباعة الثلاثية الابعاد.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

خالد شاهين شاعر

حنين موجع

الحنين إليها كان طاغياً، شعرتُ بالموت على الباب، فزاد الوجع وعلت درجات الحنين. اليوم الواحد والثلاثون من كانون الأول/ ديسمبر، واليوم الأخير في السنة، الحرب تركض بسرعة فائقة، وتدخل عام 2024 بكلّ خراب ودمار والكثير من الشهداء من البشر والحجر، هذه الحرب مختلفة، مغايرة تبدو عن سابقاتها، تشعر فيها بين الحب والحرب شعرة، راءٌ مخفّفة، لحظة رقص حين يُقرر فيها الطرفان وقف إطلاق النار..

قطع..

في آخر ليلة حرب حب من شهر كانون الأول/ ديسمبر 2023، كانت ليلةً مروّعة، عدتُ إلى البيت في الرابعة فجراً حين هدأ قليلاً إطلاق النار الذي أودى بحياة العشرات، وصلت لمنفاي الجديد، حزيناً، منهكاً، وفي لحظة ولهفة عاشق مسكين تمنيت أن تكون شبكة «الواي فاي» ما زالت تعمل، مممم، الإنترنت ما زال يعمل، وهي كأنها نائمة الآن، وإلا ردت، رجعت إلى دردشة قديمة بيننا على الـ«WhatsApp» تؤنس خوفي وقلقي وتقلل من رهبة صوت الصواريخ والقذائف، أبحث عنك في هذ الليلة، «بصراحة» كأنني على موعد حب لأول مرة، في هذا الليل الذي يكثر فيه الشهداء والموت؛ أتأمل في رسائل كانت بيننا، أضحك أمام حروفك المقطعة، وايماءاتك اللاذعة، وكلماتنا المخجلة، والتي استبدلناها كي لا يكشف نوايانا أحد، أخذت «Screen shot» لسطرٍ من حب ومن لهفة «محيرة».

قطع...

مولعٌ أنا فيكِ عند الكتابة، وعند انتصاف الليل، وعند صوت كل قذيفة تنزل بالجوار مخلفة خلفها الكثير من الشهداء. ملاحظة: يربكني فرق التوقيت بين غزة ومدينة مونتريال، صوت «الزنانة» تؤرقني ملابسك المحتشمة أحيانا حين نكون وحدنا في الربع الأخير من الليل. تذكرت اللحظة، في حوارٍ آخر بيننا على الـ «(Messenger»، عثرتُ هنّاك على تنهيدة، دمعة، وابتسامة كان عليها شهود، وذكرى سأنفض عنها الغبار كي تبدو وكأنها للتو صارت تلمع.

قطع...

وأنا المسافر إلى أمسي أبدو أسرع من فهدٍ في الصعود، وفي النزول من صاروخ زلزل قلب المنطقة، اللحظة: تشتعل حواسي، تفوح منها رائحة المشمش البلدي، خبز الطين، البارود، أحب كل شيء فيكِ حتى كأبتك في الجو البارد، وغضبك اللامبرر على استمرار الحرب التي خربت كل أحلامك، ومن تعبك في الحِصن الذي تسكنين، متى تتحررين من نكهة الأدوية والتدفئة المركزية، رائحة الخشب المبلل في الشتاء، قبل نزوحي إلى رفح ما زلت قادراً على الكتابة عنك، وعن الحرب وعن المأساة كي أقنع قلبي أنني موجود، هنا وجدت على الـ Instagram مفردة تخبرني أنك على أحسن حال، وكانت الريح يومها بوصلتي كلما هبّ الحنين، ونكون في حالات أحياناً مرغمين فيها على الصبر ومتابعة دروس التنمية البشرية، وسماع الأدعية النبوية بقلب خاشع، والكشف عن أسرار الغزوات التي كنا نخوضها مستسلمين لهزائمنا الرائعة.

الحرية لها معنى واحد عند كلّ المعذبين، لا أحلم بأكثر من كرامة أقاتل من أجلها وتعلمني أصول الحب، وتعلّمني الأدب. لن أنسى في حضرة حب ميت ما يحدث في حارتنا، سأخبرُك عن بعض القصص كي تكوني الشاهدة معي على هذه الملهاة التي اسمها الحرب. اللحظة: الطائرات تقصف بيتا يكتظ بأشخاص مدنيين، سيارات الإسعاف تهرول نحو البيت، تتبعها سيارات الإطفاء. عند وصولهم جميعاً كانت الأم الناجية الوحيدة من المجزرة تصرخ في وجه الناس التي تجمهرت وتبحث بينهم عن ضباط الإسعاف، رجال الإطفاء، أمسكت بواحد منهم وقالت «حبيبي يا أمه، بنتي كانت بتتحمم لما قصفو البيت بعرضك يا أخوي استرها وانت بطلع فيها»...

قطع...

طاول القصف برجاً وخلّف وراءه الكثير من الشهداء وهدم جزءي لبيتٍ من الصفيح مجاور للبرج، هرعت سيارات الإسعاف، حضرت لتحمل جثث الشهداء، والمصابين، منهم أطفالٌ أكبرهم لم يتجاوز العاشرة. من بين الشهداء كان طفل مقطع الأوصال، ركب الأب سيارة أجرة ليلحق الشهداء والمصابين إلى مستشفى شهداء الأقصى متمنياً أن يكون ابنه من المصابين. عند مدخل الطوارئ وصل ورغم الازدحام بدأ بركض يبحث عن ضحاياه ، رأى المسعفين قد أنزلوا قطعاً من اللحم ووضعوها على شرشف أبيض ليضعوها في الثلاجة إلى حين الدفن، وصل الأب وبطريقة هستيرية حمل اللحم المفتت ووضعه على الأرض وقام بخلع ملابسه العلوية وقال بصوت مخنوق: شايف يا «بايدن».. شايف يا «نتنياهو».. ورفع يديه إلى السماء قائلاً نويت الصلاة على أشلاء أبنائي لوجه الله تعالي الله أكبر، وخرّ ساجداً فوق الجثة أمام الحضور الذي تسمر من هول الموقف.

قطع ..

شو بدك أقلك كمان، الحرب مستمرة ولن تتوقف حتى تتحقق أهدافهم، أما عن أهدافنا نحن المنهكين منها ومن تبعاتها المربكة، في حيرة من أمرنا، هل سنهاجر مرة أخرى خارج الوطن، لا أعرف ولكني أعرف أنني لن أتركها. تذكرت جاري محمد أخو نشأت، حاول أن ينجو حين اشتدّ القصف عليه وصار الدخان ملء السماء أسود، خرج من البيت مذعوراً، نسي طفله في خزانة الملابس معلقاً مع الفساتين. عاد ليحمله، ابتسم لأنه ما زال حيا فيما العائلة كلها كانت تحت الرمال قد فارقت الحياة. الحرب يا صغيرتي لعنة وقد أصابتنا ولا نملك إلا الصبر والصبر فقط، والكتابة فقط لكي ننجو من هذا الواقع الصعب والذي لا تظهر له أي ملامح، فكتبت الليلة الماضية هذا النص وأتمنى منك مراجعة الفقرات وعلامات الترقيم والكلمات المكررة ومناقشتي في بعض الجمل الاسمية وكيف يمكن أن نحوّل فعل الماضي في السرد إلى المضارع كي تظلّ الأحداث مستمرة ولا تتوقف.. غزة وأشياءٌ أخرى.

الحرية لها معنى واحد عند كلّ المعذبين، لا أحلم بأكثر من كرامة أقاتل من أجلها وتعلمني أصول الحب، وتعلّمني الأدب

رأى المسعفون قد أنزلوا قطعاً من اللحم ووضعوها على شرشف أبيض ليضعوها في الثلاجة إلى حين الدفن

قطع...

السماءُ في الليلِ برتقالةٌ من نُحاس، هل هذه غزة أم صورةٌ جديدةٌ لكوكبٍ للتو مُكتشف، صارت مخيلتي البكرُ أكثر جموحاً، سأذهب بها إلى الممرات التي لا تؤدي إلى أي شيءٍ، واثقاً من وصولي لرغبتي المطفأة، لا تُصدق الصعود السهل للغايات ولا السير المطمئن في الغابات، نحن ضحايا لا صوت لهم في هذا الضجيج، صغارُنا يحملون المسؤولية فوق ظهورهم في حقيبة النزوح إلى الفراغ، يصحّحون أخطاء اللغة في ميكروفونات القنوات الناقله للتعب، جوعى يثيرون شهية السؤال في فم الليل، أحصنةٌ تجر الشهداء إلى صقيعٍ مبهم قبل أن يُفسد الموت نياتهم، كسلٌ يصيب العين حين تنكسر الروح أمام قطعة حلوى تحلم أن تراها، «القهوة ترف» الماء النظيف من الأمنيات إذا ما نقحت عليك رغوة الذاكرة، يعزّون أنفسهم بعبارات قالها قبلنا الآخرون «عرف الثوار من رائحتهم النتنة»، طبعةُ صوري المخزنة في المدارس المكتوب على بابها «يسمح فقط دخول العربات واللاجئين». هل عند جوعي أكون سافلاً إذا لزم الأمر؟ هذا سؤال سمج قلتُ في روحي، لذا سأبحث عن أهلي داخل فصول مدرسة الإيواء كي لا أضيعهم في فطور الصباح، لا حول ولا علبة فول فبعد هذا الانتظار المر تسدُ هذا الباب، إذن سأنتظر حتى تنتهي الفوضى وتدخل الشاحنات المحملة بعيناتٍ منتهية الصلاحية.

قطع...

هذا الجبن بطعم الدود، والمربى مالح، والخبز أصابه العفن، لا يهم، فهل يكفي للجميع إذن؟ النسوة يتوغلن في الزحمة بصمت، بحة شوك في حبالهن الصوتية، سال من القلب الكلام، مبللا بالحزن والغضب قال قائل: استمروا، النعوش تكفي لنا، هذا التَلوُّثُ البصري من صفات الذين يراؤون في الإحسان، هددوا وتوعدوا وعددوا كل الصفات القبيحة لوكالة الغوث التي ذلت الملهوف منا، وأجبرت البعض أن يبكي ويضحك ويلقى الكبرياء في حاوية «القمامة». هذا الوقت صالح لرغيف خبزٍ، وأنا أحارب بالنيابة عنكم وعن جوعي، أقاتل من أجل وطن صار لوحة في المتاحف أو ذكرى مغلفة في علب الهدايا. خان الوقت ولم يحن بعد، خان، فافتح أجزاء مسدسك على النوم، صوّب نحو القهر رصاصاتك، وخذ هذا الغريب معك يجمع فوارغها على درج الصحو..

قطع...

وعلى سيرة الخبز والماء، في ظل هذا الخراب الذي نعيش، أتذكر قول بوذا: دعوا خُبزكم على عتبات كهوفكم للجائعين واتركوا بعض الثِمار على غصونها لعابري الطريق. يريد أن يقول لنا هذا الرجل يا حبيبتي، «الناس لازم تكون لبعضها البعض» في هذه الظروف المعقدة، لأن هذه الحقبة -أقصد- سوف تكون معياراً لحياتنا في المستقبل..الحرب غربلت ناساً كثيرين، يقول رجلٌ بلغ الثمانين عاماً ويضيف: فيها عرفنا المنيح من العاطل، والهامل راح تظلّ سيرتو معو، وابن العز يا ولدي عمرو ما ينهان حتى لو تقصد البعض هاي الإهانة، ترفع لتسمو، وسأظل أنتظر: متي تنتهي الحرب يا رب .. وهل هذا الذي نحن فيه حقيقةٌ فعلاً أم هو مجرد خيال شاغر من الصور، وها أنا أحاول أن أتخيل من علو .. يقولون من فوق جبل يرى المرء كل شيءٍ بوضوح أكثر. إذا كتب لي الله النجاة سوف أكتبُ أكثر عن هذه الحرب، وما خلفته من معاناة ومأساة لم تحدث لا في العصور الغابرة، ولا في العصر الحديث. هذه إبادة منظّمة وكأن كل شيء معدّ لنا سلفاً.

رسم للفنان الفلسطيني ماجد شلا

عائدة حسنين كاتبة

الحرب تحتفل بعيد ميلادي على طريقتها

وإن بكيت من الجراح
لكن تقوّيني الجراح
قلبي انذبح
والدمع صاح
الدمع صاح

الصراع من أجل الحياة يفرض علينا أن نترك الغالي والنفيس من أجل النجاة من التهديد. تهديد الموت أو الإصابة بعاهةٍ ما. نحن على استعداد، فكلّ له حقيبته أوحقيبتها وفيها الهوية والأوراق والمستندات المهمة، وجهاز اللابتوب وجهاز الجوال. اللحظة التي يتمّ فيها الخروج، فيها لحظة الفزع الأكبر، وتتمّ بالعادة بعد القصف القريب جداً أو التهديد الأشدّ. الكلّ يركض نحو الباب في هلع لا يعلمه إلا الله، وكأنها الطامة الكبرى، وكأنه يوم القيامة. لا نعرف وجهتنا إلى أين؟

فنحن في أول مرة كانت وجهتنا إلى اللامكان، حيث خرج كل سكان برج مكة قرب دوار أبو مازن، إلى الشوارع لا يعرفون إلى أين يذهبون. لم أعرف ماذا نفعل. انتقلنا من شارع لشارع ننظر إلى اللامكان. ذهبنا إلى مجمع «كيرفور» التجاري لنختبئ فهو خارج حساب الجميع كما اعتقدنا، فإذا به مغلق. بعد دقائق اشتد الضرب والقصف فدخلنا إلى فرع مخبز العائلات المقابل للمول التجاري. اشترينا الخبز. كان البحر القريب يشاهد ما يحدث باستغراب و ذهول. لم أتمكن من النظر طويلاً ناحية البحر أو الحديث معه عن قرب فالموت يحاصر خطواتنا.
إلى أين نذهب؟

■■■

كنا نتخبط في الشارع ولم يكن هناك أحد. بعدها تفرّق الجمع كل في وجهته أو وجهتها. لم ننم ليلتها بعد أن انتقلنا إلى بيت أحد المعارف، حيث كنا نشاهد أحداث الهول الأعظم من خلف الزجاج والشاشة الكبيرة تعرض الأخبار. الزوارق على بعد أمتار والطائرات تهدر ونحن نرى كيف يحرقون غزّة، هذه المدينة الجميلة الفاتنة. لم أصدّق أنهم يهدمون صروح العلم. لم أصدق ما رأيت من استهداف للجامعات. هل هناك من يهدم جامعة؟! نارٌ، دخان أسود في كلّ اتجاه. أصوات سيارات الإسعاف وسيارات الدفاع المدني، وأصوات الإذاعات المرئية والمسموعة. اتصل بي رامز أخي وصديقي يسأل بقلق: أين أنت؟

هذه حرب مختلفة وكنت أظنها قصيرة خاطفة. في صباح اليوم الثاني، غادرنا بعد تناول الإفطار الذي أعدّه مضيفنا، الذي يعمل طبيباً. الفول بزيت الزيتون والطحينة والزعتر والدقة والشاي الساخن بالمريمية والقرشلة الناشفة. كان الطعام مميزاً أعطانا بعض الأمان، وبعض الدفء، فنحن كنا في الخريف في العاشر من شهر تشرين الأول/ أكتوبر.

خرجنا بعد الاستئذان والوداع إلى حيّ الشيخ رضوان حيث شقتنا الضيقة في العمارة القديمة. لا أثاث فالغبار يتزاحم مع الضربات ويطبق الخناق على أرواحنا الخائفة. بدأت أمسح الغبار وأرتب المكان ومن ثم نمنا على سجادة دون فراش آخر ودون غطاء. كان معنا بعض المال فاشترينا ما يلزم من طعام للغداء. في الليل جلسنا مع الجيران، النساء على حدة، والرجال على حدة، ومن ثم «نمنا شوية بحثاً عن الونس» فالحرب في أوجها، وكنا في حالة ذهول مما نسمع ونرى محدقين بعضنا ببعض: ما هذا يا الله؟

كنا بعضنا مع بعض كسكان العمارة نصلي سوياً، نأكل سوياً وندعو الله سوياً. بحدود شهر كامل، كانت مدّة الإقامة في هذا المكان، ومن ثم خرجنا إلى المدارس، وتحديداً إلى مدرسة مصعب بن عمير. هناك تقاسمنا مع عدة عائلات الصف، وكانت الخرائط تغطي النوافذ. عادت إليّ ذاكرتي حين كنت تلميذة في المدرسة.

الصراع من أجل الحياة يفرض علينا أن نترك الغالي والنفيس من أجل النجاة من التهديد

لم أتذكر أن الهروب الأول، أو الفرار العظيم، أو النزوح، كان في يوم عيد ميلادي

المدرسة التي صارت مأوانا وملاذنا مخصصة للمرحلة الإعدادية. أذهب لشراء الخبز وشحن البطارية والجوالات. وكان باعة الخضار والفاكهة يعرضون بضاعتهم على الكارات التي تجرّها الحمير، يمرون من أمام المخبز. وكنا نعاني في حمل الماء المالح للتنظيف والماء العذب للشرب. كنا نحتاج إلى النظافة، فاغتسلنا وغسلنا الملابس ونشرناها على شباك نوافذ الفصول. استمرت إقامتنا في المدرسة قرابة شهر كامل. بعدها ذهبنا إلى بيت أحد الأقارب بالقرب من بركة الشيخ رضوان. هناك ضاقت الأمور، ووجدنا صعوبة في الحصول على طعام. لا خبز ولا معلبات ولا فاكهة أو لحم أو خضار. اعتمدنا على الأرز كطعام أساسي إلى أن انقطع الأرز أو ارتفع سعره مع تضاؤل كمياته، وارتفعت أسعاره لدرجة أننا عجزنا عن الشراء. اشتدّت دائرة المجاعة أكثر فأكثر.

قال أحدهم إنّ معسكر جباليا للاجئين الفلسطينيين يصلح للسكن بعد أن خرجت منه الدبابات في شهر كانون الأول/ ديسمبر. مع ذلك، كنا نسمع هدير الدبابات تمرّ وصخب الجرافات يفسد كل ما حولنا. هناك قبل أن يخرجوا يقولون إنهم دخلوا على عائلات وقتلوا كلّ الأفراد. هناك من هدم الجدران ليفرّ من الدبابات لأنها تقتل كلّ متحرّك أمامها. الرعب شديدٌ جداً، أين نذهب، كيف ننجو، كلّ غزّة في خطر؟!

هناك من فرّ إلى الجنوب وقتلوه في الجنوب، ومن وصل إلى رفح وظن أنه في مأمن، لم يشعر بالأمن، فرفح صارت عقدة هذا الكون، وظلّ السؤال هل سيتمّ الهجوم عل رفح أم لن يتم الهجوم عليها. وكنا نظن أن الأمر سيتأجل إلى ما بعد رمضان، على الأقل، حتى لا تستفزّ الجيوش العربية والكرامة العربية. مع ذلك، هجموا على رفح. في وقتها، لم أتذكر أنّ الهروب الأول، أو الفرار العظيم، أو النزوح، كان في يوم عيد ميلادي التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر، فاحتفلت الحرب على طريقتها بعيدي.

■■■

في نزوحي إلى جباليا، مررتُ باليمن السعيد؛ أقصد مشفى اليمن السعيد. رأيت تكدّس الناس في الساحات والممرات والمداخل والأقسام والغرف، ورأيت شاباً يفترس قماشة بيضاء في حجر أمه، ويمشط شعره وهذا ما يفعله الصغار عندما يصابون بداء الحشرات (القمل)، فالكثير من الزوجات نزحن من الشمال إلى الجنوب مع الأطفال، وتعايش الأزواج مع الوضع برفقة الأمهات. سوق جباليا المعسكر مليء بالسكان. عشرات الألوف. لكن الوحل يملأ الشوارع والنفس لا تحتاج إلى قلاقل واضطرابات ومشاهد تزيدها توحّشاً واغتراباً.

ارتفعت الأسعار إلى درجة خيالية، فكان كيلوغرام الدقيق بمائة وعشرين شيكلاً. ووصل سعر كيلوغرام الطماطم لمائتي شيكل. السوق يخلو من الفاكهة ومن اللحم والخضار. مجاعةٌ حقيقية؛ لأشهر طوال الناس لم تأكل الخبز أو مشتقاته، مثل البسكويت أو المعكرونة. نبتة الخبيزة كانت هي الوحيدة المتاحة كمائدة للجميع، حتى كتب الشباب على الجدران: زهقنا (مللنا) من الخبيزة، تناول الناس الخبيزة بالملعقة لعدم وجود الخبز.

استمرّت المجاعة حتى جاء شهر رمضان المبارك، شهر الخير، وفعلاً جاء الخير وصارت التكيات تطبخ للعامة الطعام، وكان معظم الطعام أيضاً من الخبيزة، أو شوربة القرع والجزر والبطاطا. ووصلت بنا الحال أن نجهز الصلصة بكميات كبيرة مضافة إليها قطع قليلة جداً من البطاطا، لأنها نادرة ومرتفعة السعر جداً، حتى البصل بات يباع بالأوقية، وكلّ شيء يباع بأغلى الأثمان، ويُشترى بأقل الكميات إن توفر. ورغم أنني أتلقى راتباً كمعلمة، فإن الراتب لم يكن يكفي لشيء، فالمعلبات التي هي غذاؤنا الأساسي كانت قليلة وغالية الثمن. نحلت أجساد الناس وهزلت، وتعبنا...